من الألم إلى الأمل

تأليف : أميمة المساوي

من الألم إلى الأمل

تأليف: أميمة المساوي

إهداء

أهدي هذا الكتاب إلى كل من دعمني وشجعني لتأليف هذا الكتاب ،
. إهداء إلى أسترتي الصغيرة

في منطقة هادئة قريبة للمدينة ، عاشت إسراء مع أبيها وأمها ، كان أبوها السيد "كمال" طبيبا في مستشفى المدينة، وكانت أمها السيدة "أمينة" أستاذة مادة العربية في مدرسة لا تبعد عن منزلهم سوى دقائق قليلة .

عاشت الأسرة في هناء وراحة ، كان عمل الأب يوفر للأسرة كل احتياجاتها ويلبي كل متطلباتها ، وكذلك الأم التي كانت تخصص معظم أجرتها لشراء الكتب لابنتها وتوفير كل احتياجاتها دون أن ينقصها أي شيء . في الخامسة من عمرها؛كانت إسراء تحس بالمجهودات التي يقوم بها والداها من أجلها فكانت بدورها ابنة بارة لهما ، لا ترفع صوتها عليهما ولا تفعل ما يغضبهما ، كانت هذه الأسرة تعيش في دفء عائلي كبير ، حتى إن بعض الجارات اللواتي يزرن السيدة "أمينة"تصيبهن الغيرة من العلاقة التي تجمعهم ، ولم يستطعن إخفاء غيرتهن المبالغ فيها .

كان توقيت عمل الأم والأب مناسبا لتوفير وقت كاف للاهتمام بإسراء ؛ فالأم تعمل نصف اليوم فيكون لديها متسع من الوقت للجلوس مع ابنتها وإعطاءها وقتا كافيا للتعبير عن آرائها واهتماماتها ، أما الأب فهو الآخر يجد الوقت في المساء للتحدث مع ابنته التي كانت تحب الجلوس مع أبيها أكثر .

في كل مساء ، وعندما يعود الأب من العمل ، يحضر لابنته هدية ، تارة يحضر لها دمى ، وتارة أخرى يحضر لها الحلوى اللذيذة ، أما في بعض الأحيان فإنه يحضر له قصصا تناسب سنها ؛سواء بالانجليزية أو العربية .

كانت إسراء تمتاز بذكاء كبير ورغبة في الدراسة والمطالعة ، وهو ما لاحظه والداها وكان متأكدين من أنها ستصبح ذات شأن عظيم في المستقبل .

في البداية كانت إسراء تستمع للقصص من أمها أو من التلفاز ، ولكن مع مضي الوقت ؛أصبح والداها يجدانها في غرفتها وحيدة تحمل كتابا وتقرؤه وعندما تنتهي من القراءة تحدث أمها عن شخصياتها كما لو أنهم أصدقاؤها ويعيشون معها ، كانت ذات شخصية متوازنة ولم تكن كغيرها من الأطفال الذين همهم الوحيد هو الحصول على الهواتف واللوحات الالكترونية في سن صغير أو الخروج واللعب معظم النهار ، فرغم وجود فتيات في مثل سنها بجوار بيتها إلا أنها تفضل الجلوس في المنزل في هدوء وقراءة كتبها المفضلة كل هذا وهي في الخامسة والنصف من عمرها .

استمر كل شيء على هذا الحال ، حتى أصبحت إسراء في السادسة من عمرها ودخلت المدرسة ، لاحظ معلموها شدة ذكائها وتركيزها في القسم وحرصها الدائم على إنجاز

واجباتها والتحضير المنزلي بمساعدة والديها مع حضور للبديهة أثناء الشرح .

كان الوالدان فخورين كثيرا بتلك الابنة المجتهدة البارة وحريصين على توفير كل ما قد تحتاج إليه ، جهزا لها غرفة كبيرة في المنزل مع مكتب جميل يتناسب مع اهتماماتها ، وأهم ما في الغرفة مكتبة صغيرة تملؤها القصص ، كان هذه الغرفة المكان الذي تقضي فيها إسراء معظم وقتها .

وبالإضافة إلى ذكائها واجتهادها ، كانت إسراء جميلة جدا ، كانت بيضاء وبشرتها ناصعة كالثلج ، بشعر أسود وأملس ، وعينان تشبهان عيون الريم تشع منها البراءة .

اتفق الجميع على حبها فقد كانت هي الأخرى تحب الصغير وتعاملها بحسن ، وتحترم الكبير ولا ترفض له أمرا.

ظلت حياتهم مستقرة هكذا إلى أن
وصل ذلك اليوم المشؤوم الذي تمنوا لو أنه حذف من حياتهم
. ولم يخرب سلسلة من السعادة والهناء التي عاشوها

كان يوم الاثنين ، استعد السيد "كمال" للذهاب للعمل،
أما السيدة "أمينة" فقد أيقظت ابنتها من النوم لتستعد ليوم
دراسي جديد ، وكعادتها قامت بتحضير الفطور واجتمع عليه
الثلاثة حتى شبعوا ، ثم ذهبت إسراء وجهزت نفسها وأعدت
حقيبتها المدرسية ، في تمام الثامنة والربع أصبح الجميع
مستعدا للانطلاق ، ركبوا سيارة السيد "كمال" وانطلقوا ،
تحدثوا قليلا ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان، شاحنة كبيرة
. تصطدم بهم أحدث اندفاعها صريرا في الطريق

اجتمع الناس حولهم ، كانت السيارة قد تحطمت من الأمام،
وحاول المجتمعون إخراجهم من السيارة . كانت إسراء أول
من أنقذ بعدها السيدة "آمنة" ثم السيد "كمال" ، واتصل شاب
كان قد رآى الحادث بسيارة الاسعاف . مرت دقائق قليلة
حتى وصلت وحملت المصابين إلى المستشفى ، كانت
إصاباتهم بليغة وخاصة الأب والأم ، أما إسراء فلم تكن
إصاباتها بتلك الخطورة ، ما إن دخلوا إلى المستشفى حتى
،بدأ الأطباء في معالجتهم ، وتمكنوا بالفعل من إنقاذ الطفلة

.ولكن الأب والأم كانت إصاباتهما خكيرة ولم يستطيعا النجاة

حضر الجد والجدة بعد أن علموا ما حدث ، وانتابهم حزن "شديد على السيد"كمال" والسيدة "أمينة

ذهبا إلى إحدى غرف المستشفى ، حيص وجدوا إسراء ممددة فوق السريرة وتبكي بحرقة ، كيف لا؟ وهي من فقدت والديها في حادث مفزع مرة واحدة ، كيف لا وهي من فقدت سندها في هذه الحياة القاسية ؟ تركها والداها وحيدة في هذا العالم القاسي الذي لم يحفظها من وحشيته طيلة هذه السنين سوى أبوها وأمها، أحست في ذلك اليوم أن كل شيء قد انتهى ولم يعد لها سند في هذه الحياة ، لم يعد هناك شخص تحكي لها يومياتها واهتماماتها ، ولم يعد هناك شخص تناقش معه كتبها التي تقرؤها .

اقترب الجد من حفيدته الصغيرة التي كانت تعاني ألم الفراق وربت على كتفها وقال لها : أعلم يا بنيتي أنك تقاسين كثيرا هذه الفترة وأعلم ذدة الألم الذي تعيشينه بعد فقدان والديك في نفس اليوم ولكنه قضاء الله وقدره ، كلنا سنموت يوما ، ولا تنسي أننا معك وبجوارك ولم يمسك مكروه ما دمنا على قيد الحياة .

ظن الجد أنه إن تحدث معها ستكف عن البكاء ولكن ذلك زادها بكاء ، اقتربت منها جدتها وقال لها بصوت تملؤه الحنية : اسمعي يا بنيتي ؛ أعلم أن بكاءك هذا أمر طبيعي ما

دمت فقدتك والديك العزيزين ، ولكن فكري أكثر، هل سيكونان سعيدين وأنت تبكين بكل هذه الحرقة ؟ بالطبع لا ، أنت تعلمين أنك أغلى ما يملكان ولن يريدا أن يرياكي تبكين أو تتألمين ، أرجوك تحلي بالصبر من أجل والديك ومن اجل صحتك ، أنت بهذه الطريقة لن تستفيدي شيئا ، نحن جميعا نعرف مدى قوتك وعزمك ، كل ما عليك فعله الآن هو الدعاء مع والديك بالرحمة وأن تطلبي من العلي القدير أن يسكنهما فسيح جناته وأن تعملي جاهدة على تحقيق ما كانا يتمنيان أن يرياكي تحققينه .

كانت كلمات الجدة قد أحدثت فرقا ولو بسيطا في نفسية إسراء وقامت بشكر كل من الجد والجد . قطعت طرقات على باب الغرفة حديثهم ثم دلف الطبيب حاملا أوراقا في يده ، وأخبرهم أن إسراء يمكنها مغادرة المستشفى بعد أن كانت كل الفحوصات سليمة ، وقدم تلك الأوراق للجد كي يوقع عليها .

وقع الجد على أوراق الخروج من المشفى ، في حين ساعدت الجدة إسراء كي تغير ملابسها وتجهز نفسها للخروج من المستشفى ، انطلق الجميع نحو منزل الجدين حيث ستكمل إسراء بقية حياتها ولكن الجد توقف في الطريق حتى

اشترى بعض الأدوية التي ستحتاجها إسراء لمعالجة بعض الجروح ثم أكملوا طريقهم إلى المنزل .

دخل الجدين ومعهم إسراء إلى منزلهم ، وحضرت الجدة غرفة من أجل إسراء التي دلفت إليها واستلقت في السرير ، ثم توجهت الجدة إلى المطبخ لتحضير حساء الخضار، بعد مدة قصيرة وضعت الطعام على المائدة ونادت إسراء والجد للأكل .

بدأ الجميع يأكلون وبدا على إسراء أنها أصبحت أفضل مما كانت عليه في المستشفى .

مرت أيام على الحادث حاول خلالها الجد والجدة القيام بمعظم الأنشطة التي اعتادت إسراء أن تقوم بها رفقة والديها حتى لا تحس بالنقص وأن تحس كأنهما برفقتها ، اعتاد الجد كل يوم أن يحضر هدايا لحفيدته ويفاجئها به ، أو يحضر لها قصصا يحرص على تغليفها بالورق الملون أو يحضر لها ورودا يكتب عليها في الغالب : أحضرت هذه الورود لأجمل وردة في هذه الدنيا .

أما الجدة فقد عودت حفيدتها أن تتحدث معها كل مساء وتسألها عن الكتب التي تقرؤها رغم أنها لا تفهم الشيء الكثير مما تتحدث عنه .

مع مضي الوقت بدا ألم الفراق ينقص شيئا فشيئا ، وعلامات إسراء في المدرسة تزداد وتصبح التلميذة المحبوبة في صفوف أساتذتها .

في نهاية السنة تلقى الجد مكالمة هاتفية من إدارة المدرسة، أخبره فيها أن إسراء حصلت على أعلى معدل في المدرسة ودعا أولياء أمرها لحضور حفل تتويجها ، ما إن أخبر الجد حفيدته بالأمر كادت أن تطير فرحا ولكن ملامحها تغيرت فجأى وبدأت الدموع تنغمر من عينيها ، تساءل الجد عن سبب حزنها فمن المفترض أن تكون أسعد شخص ، قالت إسراء بنبرة يملؤها الحزن : كنت أتمنى لو أن والداي كان برفقتي سيكونان فخورين بي كثيرا .

عانقتها الجدة وقالت في حنية : يا بنيتي ، والداك حتى وهما ميتان سيكونان فخورين بك كثيرا سيعلمان أنهما قاما بتربيتك تربية حسنة وأن مجهوظاتهما وحرصهما على تعليمك لم يذهب هباء.

فرحت الفتاة مرة أخرى وكان حزنها أقل من ذي قبل حينما وعدها جدها وجدتها أنهما سيرافقانها إلى الحفلة وسيكونان بجانبها .

جاء ذلك اليوم ، ارتدت إسراء أفخر ما لديهه وارتدى كل من جدها وجدتها لباسا جميلا لائقا بحفلة مدرسية ثم

انطلقوا إلى المدرسة . كان كل الأساتذه فخورين بإسراء التي حصلت على معدل جيد جدا وتبوأت الصدارة بفضل اجتهادها وحرص جديها ووالديها على تعليهما .

استمر كل شيء على هذا الحال واستمرت الفتاة الذكية على هذا المنوال متحصلة على أعلى المعدلات وإن نقصت درجة واحدة فإنها تجتهد أكثى وأكثر .

خصص لها جدها مبلغا شهريا من النقود استطاعت من خلالها شراء المزيد من الكتب والمجلات والروايات وكل ما تزين به مكتبتها التي صنعتها بنفسها في بيت جدها وفي كل مرة تجد فيها متسعا تنكب على قراءة كتبها وتوطدت العلاقة بينها وبين صفحات تلك الكتب ورائحتها العطرة الجميلة مما زادها ذكاء ودهاء أكثر مما كانت عليه ، تعلمت الانجليزية والفرنسية والاسبانية بالاضافة إلى العربية التي كانت تتقنها منذ البداية .

وصلت إسراء إلى الثامنة عشر من عمرها ، كبرت وكبرت معها أحلامها ، وحققت نجاحا باهرا وحصدت جوائز في مختلف المسابقات كما أصبحت تتقن العديد من اللغات ، كانت هذه السنة الدراسية حاسمة في حياتها فهس التي ستحسم التخصص الذي ستدرسه وبالتالي المجال الذي ستعمل فيه ، وما كان من إسراء إلا أن تبدل المزيد من الجهد

هذه السنة ، درست بجد في المنزل وتابعت دروسها مع معلميها داخل الفصل ، سهرت الليالي كي تدرس فكانت في بعض الأحيان لا تنام سوى بضع ساعات وفي أحيان أخرى لا يغمض لها جفن ، كان هدفها الأسمى هو النجاح في حياتها وتحقيق معدل يمكنها من ولوج مجال يليق وطموحاتها ، قبل ثلاثة أشهر من الامتحان ؛ ادخر الجد المال وأدخل حفيدته لحضور دروس خصوصية وزيادة معلومات حول الدروس كما أشرف على مرافقتها كل يوم إلى المركز ، أما الجدة فكانت لا تسمح لها بالقيام بأية أعمال منزلية ووفرت لها طعامل صحيا يحافظ على صحتها كي تجتاز الامتحان في كامل صحتها .

رافقها الجدان طيلة فترة الاستعداد للامتحانات ، وكانت تقدر بشدة قدر المجهودات التي يبذلانها وتعد نفسها انها ستقوم بكل ما ليدها كي تجازيهما .

في يوم الامتحان استيقظت إسراء في الساعة الخامسة والنصف وراجعت المواد التي ستمتحن فيها للمرة الأخيرة ، ثم بعد ذلك ذهبت لترتدي ملابسها ، أما الجدة فقد استيقظت وبينها كانت تحضر الفطور كان الجد جالسا مع إسراء يعطيها بعض النصائح ويوصيها بعدم التوتر .

رافقها الجد إلى الثانوية وحلس حتى دخلت ، كانت متوترة قليلا وينتابها القليل من الخوف ، ولكنها تتذكر المجهودات التي قامت وأنها ذاكرت بشكل جيد ولا يوجد شيء تخاف منه وسرعان ما طردت تلك الأفكار التي سببت لها التوتر ودلفت إلى القاعة لتجتاز الامتحان ، كانت كل الأسئلة سهلة بالنسبة لها ولم تجد أية صعوبات ، انتهت فترة الامتحانات وبدأت معها فترة الانتظار لمعرفة العلامات ، وبعد أيام من التوتر حان وقت النتائج ، وحصلت إسراء على ممتاز في كل الامتحانات وما كان منها إلا أن تقوم بالتسجيل في إحدى أشهر الجامعات في كندا لتدرس الطب ؛ونظرا لمعدلها الممتاز وذكائها فقد تم قبولها بسرعة مما جعلها فرحة جدا ، تمنت لو أنها تستطيع إخبار والديها بذلك لأنهما كانا يحلمان دوما أن تدرس خارج البلاد .

بعد مضي بضعة أسابيع حان وقت الرحيل وبدء مغامرة جديدة ، جهزت إسراء حقائبها وكل ما تحتاجها ، تم فتحت درج مكتبها وأخذت سورة أبويها حتى تتذكرهما دائما ، ثم ذهبت لتودع جديها اللذان كانا حزينين بفراق حفيدتهما التي أمضت معها فترة طويلة من حياتها ولم بعد من السهل أن يفارقها ، كان بيت الجد يملره جو من الحزن ولكن سرعان

ما قالت إسراء : أعدكما أنني سأعود في أقرب فرصة ، ودعها الجدان ثم انطلقت لتركب الطائرة المتجهة نحو كندا .

بعد ركوب الطائرة ، بدأت إسراء تفكر وتسترجع كل حلقة من حياتها التي كانت سلسلة متماسكة من الأحداث لو فقدت حلقة واحدة لما كانت على متن هذه الطائرة اليوم ، تذكرت كل اللحظات التي مرت منها وكيف انتقلت من ألم فراق والديها إلى أمل تراه الآن بعد أن استطاعت وهي على متن هذه الطائرة الذهاب إلى كندا .

كندا

هبطت الطائرة التي
كانت إسراء على متنها في مطار كندا ، فرحت كثيرا بوصولها إلى حلمها بعد سنوات من العمل الجاد وتعلم اللغات من أجل هذه اللحظة ، اتجهت إلى منزل كانت قد استأجرته ، ثم دلفت إليه ، استلقت على سرير الغرفة وبدأت تنظر إلى السقف وتفكر ، وتقول في نفسها : وصلت إلى بداية الحلم ويجب علي أن أكمل حتى النهاية !

بعد أن انتهت من التفكير ، وضعت الملابس التي أحضرتها في خزانة الغرفة ورتبت بعض الكتب التي أحضرتها من بلدها في مكتب صغير وورعدت نفسها أنها ستشتري مزيدا

من الكتب هنا في كندا ، ثم أكلت ونامت نوما عميقا بعد ساعات من السفر .

بعد عدة أيام ذهبت إلى جامعتها التي لم تكن كغيرها من الجامعات ، كانت كبيرة جدا ، قاعاتها أكبر مما كانت تتوقعه، وكل تلميذ يتجول في مكان من الجامعة ، دلفت إلى حجرة الدرس وأخذت لها مكانا في الصفوف الأمامية ، دخل الأستاذ الصف وحياه الجميع ثم بدأ شرح الدرس بعد أن رحب بكل الطلبة .

كان الدرس سهلا بالنسبة لإسراء رغم أنه كان يومها الأول في هذه الجامعة الكندية ، وسرعان ما اعتادت على العيش في هذا البلد ، وكانت كلما انتهت من دروسها اتصلت بجدها وجدتها كي تطمئن على حالتهم ، وتخبرهم أنها بخير .

استمرت الأيام على هذا الحال ، واستمر معها بحث إسراء واجتهادها في سبيل العلم ، وكما وعدت نفسها فقد اشترت مجموعة من الكتب بمختلف اللغات ، وكلما كان لديها متسع من الوقت قرأت منه ولو بضع صفحات ، قرأت في كل الميادين وبكل اللغات ، وهو ما لاحظه أساتذتها، فمستواها العلمي كان عاليا جدا وكانت لها ثقافة عامة جيدة جدا وهو ما جعلها ؛ وكما كانت في بلدها ، محبوبة في صفوف جميع الأساتذة ، ورغم أنها لاحظت بعض الغيرة لدى زميلاتها إلا

أنها لم تكترث للأمر ، فقد كان كل ما يهمها هو إكمال مسيرتها التعليمية بتفوق وتحقيقها لأهدافها.

بعد سنوات من العمل الجاد تخرجت إسراء من كلية الطب ولم يطل الانتظار حتى خصلت على عمل كطبيبة في إحدى أمبر المستشفيات في كندا ، وبعد مدة قصيرة قررت أن تذهب لتزور جديها بعد فراق طويل ولم تتحدث معهما سوى على الهاتف فتحدث معها وأخبرتها بشأن رجوها للبلد لزيارتهما ، كانت فرحتهما كبيرة جدا .

في ذلك اليوم خرج الجد إلى السوق واشترى كل ما ستحتاجه الجدة لتحضير منا لذ وطاب من الأطعمة الشهية ، ثم جاء دور الجدة لتحضير الطعام متذكرة كل ما كانت حفيدتها تحب أكله .

بعد الانتهاء من إعداد الطعام وتزيين البيت ، ذهب الجدان للاستراحة في غرفة المعيشة ريتما تصل إسراء وفي تلك الأثناء سمع صوت طرقات في الباب ، والتي كانت مألوفة بالنسبة لهما ، فتحت الجدة الباب وبجوارها الجد ليريا إسراء أما باب البيت تحدق بهما بنظرات كلها شوق ، بدأ العناق بينهم وعبارات الاشتياق ، لاحظت إسراء تغير وجوه الجدين بعد آخر مرة رأتهما ، فقد أصبحا متقدمين في العمر وكان التعب باديا عليهما ، لكنها لم تهتم للأمر كثيرا وجلست معهما

تحكي لهما عن كل شيء في كندا بدءا بالمنازر التي رأتها وعن الشقة التي تسكنها ولم تنس أن تتحدث عن جامعتها وحب الأساتذة لها وكان آخر ما تحدثت عنه هو حصولها على عمل جيد يلبي احتياجاتها في مستشفى من أكبر المستشفيات ، فرح الجدان كثيرا ووضعت الجدة الطعام على المائدة وبدؤوا يأكلون ، فقالت إسراء : طعامك رائع جدا يا جدتي وليس كالطعام الذي نأكله في كندا ..

ضحكت الجدة وفرحت بإطراء حفيدتها علة طعامها وكانت سعيدو بأن أعجبها الطعام .

بعد أن أمضت إسراء في بلدها أسبوعين كان عليها الرحيل مرة أخرى ، ولكن ذلك لم يكن بتلك الصعوبة التي كان عليها في المرة الأولى التي ستغادر فيها البلاد ، ودعت جدها وجدتها وأعطتها مبلغا ماليا يكفيها ريثما تسنح لها الفرصة للعودة مرة أخرى ثم اتجهت نحو المطار .

مرت الساعات بسرعة حتى وصلت إلى كندا وعادت إلى منزلها واستمرت على نفس المنوال دون أن يحدث أي جديد كل ما تفعله هو قراءة كتبها والذهاب إلى عملها والتواصل مع جديها .

بعد مرور ستة أشهر ، تلقت إسراء مكالمة هاتفية من إحظى جارات جديها ، وعندما أجابتها تلقت أسوء خبر في حياتها

،فقد أخبرتها تلك الجارة أن جدها توفي إثر سكتة قلبية ، تسمرت إسراء في مكانها وأحست أنها صارت مرة أخرى وحيدة في هذا العالم وتذكرت ما كان جدها يقوم به من أجلها بكت كثيرا لدرجة أن عيناها انتفختا واحمرتا ، وفي الخقيقة فإن هذا طبيعي للغاية ، فجدها هو من أشرف على تربيتها وحرص على تعليمها .

في ذلك اليوم، حزمت إسراء امتعتها وذهبت إلى بلدها كي تحضر جنازة جدها وتكون مع جدتها في تلك الظروف الصعبة .

وجدت جدتها حزينة يؤلمها ألم فراق من امضت معه أكثر من أربعين سنة وشاركها أفراحها وأحزانها ، حاولت إسراء أن تخفف عنها ، ولكن في الحقيقة كانت هي الأخرى تحتاج إلى من يخفف عنها ، حيث أنها وفي هذا السن المبكر جربت ألم الفراق ثلاث مرات ، في البداية مع أبيها وأمها والآن مع جدها .

بعد دفن الجد واستقبال الجيران وبعض من أفراد العائلة الذين جاؤوا لزيارة الجدة ، قررت إسراء أن تخبر جدتها بما تنوي فعله .

قالت إسراء : تعلمين يا جدتي أنني قد تركتك هنا سلفا لأنك كنت مع جدي ولن أخاف عليك ، ولكن الآن وبعد وفاته لم

يعد هناك داع حتى تبقي هنا يجب عليك أن ترافقيني للعيش في كندا .

سكتت الجدة قليلا ثم قالت : أعلم ذلك يا بنيتي ولكن كيف لي أن أفارق هذا البلد العزيز الذي أمضيت فيه كل عمري